الفصل الخامس عشر
عمر الخيام وأبو العلاء المعرّى - هل هما صنوان؟

لعله من الظلم البيّن أن نقارن بين الخيام والمعرى.

ولم تكن بنا حاجة إلى عقد مثل هذه المقارنة لولا المشابهة الملحوظة بين موضوعات المعرى وكلماته فى بعض أشعاره، وبين ما ذهب إليه الخيام فى الكثير من رباعياته، مما يمكن اعتباره ترديداً ونقلا عن المفكر العربى الذى كان وما يزال أعجوبة من أعاجيب العبقرية العربية والإسلامية .

والشاعران برغم البُون الثقافى بينهما والاختلاف فى اتجاهاتهما وشخصيتيهما، إلا أنهما فى النهاية من المفكرين الإسلاميين الذين عانوا القلق الميتافيزيقى، وزاوجوا بين الشعر والفلسفة وكانا من أدباء التمرد، سواء فى الشكل الفنى أو المضمون الفكرى، وكانا ينشدان بأدبهما أو شعرهما خُلق عالم جديد أفضل وجدير بالإنسان.

والشاعران تناولا الزهد والدنيا والدين والأهل والناس والمجتمع ومسائل الفلسفة والميتافيزيقا. وربما كانت هناك ملابسات فى حياتيهما تقضي بالمشابهة أيضا في التربية والتعليم، فلقد عاشا عصرين من عصور القلق والفتن والاضطربات، وكانت نوافذ الفكر مفتوحة على مصاريعها، فالتقت فيهما روافد ثقافية شتّى، ونهلا من كل الثقافات والفلسفات، واطّلعا على كل التيارات الأدبية والعلمية والفكرية. وظهر كل ذلك على أشعارهما، فاتّهما بنفس التهمة : الزندقة وإنكار البعث والمعاد والحساب.

وكانت لهما شطحات دينية واجتهادات إشراقية، وتشابها فنياً فكان أحدهما عاشقاً للجمال فى الصورة والصوت، والثاني بحث عنه فى الكلمة وبناء الفكرة، وعاش كلاهما وجوداً أسياناً، وتجرّدا ورفضا الزواج عن مبدأ، واعتزل إخوان السوء، وتنكّبا السياسة، وجرّبا النُسك وكانا من رهبان الفكر، وعاشا للفسلفة واقتاتا بها، ولم يختلف موتهما عن حياتيهما، فماتا ميته فلسفية يستحقانها.

والمعرى يجئ قبل الخيام، وكانت ولادته نحو سنة ٣٦٣هـ، ومرض بالجدرى فذهب بصره سنة ٣٦٧ هـ، وتوفى سنة ٤٤٩هـ .

ويبلغ التأثير والتأثر بين الشاعرين إلى حد أن بعض الرباعيات تأتى كأنها ترجمة للمعرى – كهذا البيت الذى يقول فيه المعرى :

خطوب تالت لا يزال معذبا * أخوها وحلّت كل كف وساعد

ومثيله فى الوزن والقافية والكلمات عند الخيام:

إذا قنعت نفسى بميسور بُلْغة * تحصّلها بالكدّ كفّى وساعدى

*****

ومما قاله المعرى وله مشابه عند الخيام وبيّنه النقاد وأفاضوا فى شرحه:

اجتنبْ الناس وعنْ واحداً * لا تظلمْ الناسَ ولا تُظلم

*****

فلا يغرك بشرٌ من صديق * فإن ضميره إحَنٌ وخِبّ

*****

وليس عندهم دين ولا نسُك * فلا تفرك أيدٍ تحمل السُبَحاً
وكم بشيوخ غدوا بيضاً مفارقهم * يُسبّحون وباتوا فى الخنا سُبّحا

*****

أفيقوا أفيقوا ياغواة فإنما * ديانتكم مكر من القدماء

*****

إذا رجع الصيف الى حجاه * تهاون بالشرائع وازدراها

*****

حياةٌ ثم موتٌ ثم نشرٌ * حديثٌ خرافة يا أم عمرو

*****

مساجُدكم و مواخيركم * سواء، فبُعداً لكم من بشرا

*****

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا * ولكن بأمر سببته المقادر

*****

ما باختياري ميلادي ولا هرمي * ولا حياتي - فهل لي بعد تخيير؟

*****

أرى شواهد جبر لا أحققه * كأنّ كلاً إلى ما ساء مجرود

*****

أرواحُنا معنا وليس لنا بها * علمٌ فكيف إذا حوتها الأقبُرُ؟

*****

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة * أي المعاني بأهل الأرض مقصود
لم تعطنا العلم أخبارٌ يجئ بها * نقل ولا كوكب في الأرض مرصود

*****

نمر سراعاً بين مُدمين مالنا * لباثٌ كأناً عابرون على جسر

*****

وما تريد بدار لست مالكها * تقيم فيها قليلا ثم تنطلق

*****

الله صوّرني ولست بعالم * لِمَ ذاك؟ سبحان القدير الواحد

*****

ريب الزمان مفرّق الإلفين * فاحكم إلهي بين ذاك وبيني
أنهيتَ عن قتل النفوس تعمداً * وبعثتَ أنت لقتلها مَلَكيْن؟
وزعمتَ أن لها مَعاداً ثانياً * ما كان أغناها عن العالين!

*****

سألتوني فأميتني إجابتكم * من ادّعى أنه دارٍ فقد كذبا

*****

أقرُّ بأن لي رباً قديراً * ولا ألقى بدائعه بُجحد

*****

جميعنا يخبط في حندسٍ * قد استوى الناشئ والكهل

*****

خـــف الـوطء ما أظـــن أديـم الا * رض إلاّ مـــن هـــذه الأجســـاد
وقـبيحٌ بنـــا وإن قـــدم العهـــ * ـــد هـــوان الآبـــاء والأجـداد
سرْ إنْ اسـطعت فى الهـواء رويدا * لا اختـيالاً على رفات العباد

*****

وما نفيق من السكْر المحيط بنـا * إلاّ إذا قيـل هـذا المـوت قد جاء

*****

فلا يُمـس فخاراً من الفخـر عائـد * إلى عنصر الفخّار للنفع يضرب
لعـل إنـاءً منـه يُصنـع مـرة * فيأكل فيه من يشـاء ويشـرب
ويُنـقل من أرض لأخـرى ومـا نَرَى * فـواهاً لـه بُعْداً لِبـلَى يتقـرب

*****

لعـل مفـاصـل البنّـاء تضـحـى * طـــلاءً للسـقـيفة والجـــدار
وكـم وطئت أقـدامـنا فى تـرابها * جبين أخى كِـبرٍ وهـامة أبلـج

*****

وما النـاس إلاّ خـالفٌ بعد سـالفٍ * كـذلك نبْتُ الأرضِ يعـقبه النـبت

*****

تيممـوا بتـرابـى علّ فعلـــكم * بعد الصمود يوافينى بأغراضى
وإنْ جُعِلتُ بحُـكم الله فى خَـزَف * يقضى الطهور فإنى شاكر راضى

*****

خذا الآن فيما نحن فيه وخلّيـا * غداً فهو لم يقدم، وأمس قد مرّا

*****

إنمـا نحـن فى ضـلال وتعليـل * فإنْ كنّت ذا يقـيـن فهـاتـه!

*****

أرى الأشـياء ليـس لهـا ثبـات * وما أجسـامُـنا إلاّ نبـات

*****

أرى فَلَكاً ما زال بالخلق دائراً * له خبرٌ عنا يُصابُ ويُخبا

*****

بلوت أمور الناس من عهد آدم * فلم أر إلاّ هالكا إثر هالك
إذا كان هذا التُرب يجمع بيننا * فأهل الزوايا مثل أهل الممالك

*****

أراك الجهلُ أنك في نعيم * وأنت إذا افتكرت بسوء حال
وما سمحتْ لنا الدنيا بشئ * سوى تعليل نفس بالمُحال

*****

يَسَار وعُدْمٌ وإذكارٌ وغفلةٌ * وعزٌّ وذلٌّ، كل ذاك غرور

*****

ربِّ متى أرحل عن هذه الدنيا * فإني قد أطلت المقام
لم أدر ما نجمي ولكنه * مذ كان في النحس جَرَى واستقام

*****

والخير والشر ممزوجان ما افترقا * فكلُّ شَهْدٍ عليه الصاب مذرور

*****